التّشاكل ونماذج العلم المعرفي
قراءة في المفهوم "ذاكرة الجسد" أنموذجاً

نادية ويدير*

جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

1- التّشاكل: يعدّ التّشاكل (isotopie) الآليّة الإجرائيّة التي استقاها غريماس (AJ. Grimas) من ميدان الحقول العلميّة كالفيزياء والكيمياء، وحوّله إلى مجال تحليل الخطاب الأدبي في سيميائيّته المحايثة*.

يخصّ التّشاكل في مجال الكيمياء، العناصر الكيميائيّة المتشابهة التي لا تختلف إلاّ في عددها أو كتلتها، ممّا يوضّح التّقارب النّظري بين استثمار التّشاكل في مجال الكيمياء، واستثماره في مجال الدّلالة حيث الاهتمام بالتّماثلات العلامية بين الكلمات المنتميّة إلى نسق واحد، ويقصد بالتّماثل في المجال اللّساني، أو السّيميائي عامة، العلاقة التي تجمع كلمات الخطاب ضمن إطار دلالي واحد، على الرّغم من اختلافها المبني على تباين العمليات الدّاخلية التي تقدمها كل كلمة على حدى[1].

لعب التّشاكل ولا يزال دورا مهما في السّيميائيّات المعاصرة، وخضع مفهومه إلى التّطور عبر انتقاله بين الباحثين، إذ تمّ تعريفه بطرق مختلفة نعرض بعضها فيما يلي:

- **تعريف غريماس:** ربط غريماس مفهوم التّشاكل بالمحور المضموني الذي يمثّل المجموعة المتراكمة من المقولات المعنويّة، أي المقومات المتكرّرة داخل حكاية ما والتي تساعد في قراءتها[2].

توصّل محمد مفتاح من خلال مناقشته التّعريف الذي قدّمه غريماس أنّ "هذا الجزء من التّعريف لا يشمل إلاّ التّشاكل المعنوي. كما أنّه اقتصر على الحكاية في حين أنّ التّشاكل موجود ملاصق لكل تركيب لغوي"[3] لذلك يعدّ تعريف غريماس للتشاكل تعريفا قاصرا.

*- طالبة في الدكتوراه

– **تعريف راستي:** يعرّف فرنسوا راستي (F.Rastier) التّشاكل على أنّه تكرار للوحدات اللّغوية مهما كان نوع هذه الوحدات، وبذلك يكون قد عمّمه ليشمل التّعبير والمضمون معا، فراستي قد وسّع المفهوم وفتح له مجالا يشمل التّشاكل الصّوتي، النّبري، الإيقاعي، المعنوي[4].

يرى مفتاح أنّ تعريف راستي يضيف عناصر أخرى لما جاء عند غريماس، لكن على الرّغم من اختلاف هذين الباحثين حول مفهوم التّشاكل، إلاّ أنّ هناك عناصر مشتركة بينهما وهي أنّ التّشاكل[5]:

– لا يحصل إلاّ من تعدّد الوحدات اللّغوية المختلفة، بمعنى أنّه ينتج عن التّباين.

– يمثّل الآليّة التي يحصل بها الفهم الموحّد للنص المقروء.

– يعدّ الضّامن لانسجام أجزاء النّص وارتباط أقواله.

– يتولّد عنه تراكم تعبيري ومضموني تحتّمه طبيعة اللّغة والكلام.

– يعمل على إبعاد الغموض والإبهام اللذين يكونان في بعض النّصوص التي تحتمل قراءات متعدّدة.

– **تعريف جماعة مو:** اقترحت جماعة مو بدورها تعريفا يرى في التّشاكل تكرارا مقنّنا لوحدات الدال الصّوتية أو الكتابيّة وللبنيات التركيبيّة على المستوى الامتدادي للقول، وقد لاحظ محمد مفتاح أنّ التّعريف الذي جاءت به الجماعة لا يصلح إلاّ للخطابات العلميّة أو ما شابهها، في حين لا يقبل به الخطاب الشّعري[6]، ولذلك يعتبر تعريف جماعة مو للتشاكل تعريفا ناقصا أيضا.

– **تعريف محمد مفتاح:** لتجنب النّقص الذي ينتاب تعريف جماعة مو وما سبقه، يقدّم مفتاح تعريفا سعى من خلاله إلى التّدقيق في مفهوم التّشاكل وتوسعيه ليشمل ظواهر أخرى خارج النّص، حيث لاحظ أنّ كل التّعاريف السّابقة محليّة، أي متعلّقة بالقول–الخطاب في انغلاقه على نفسه– مغفلة بذلك تناسله، وعليه فالتّشاكل عند مفتاح هو: "تنميّة لنواة معنويّة سلبيّا أو إيجابيّا بإركام قسري أو اختياري لعناصر صوتيّة ومعجميّة وتركيبيّة ومعنويّة وتداوليّة ضمانا لانسجام الرّسالة"[7]، ويقصد مفتاح بالإركام الاختياري في المجال الصّوتي في قصديّة توظيف أصوات معنية لدلالة ما، أما الإركام القسري، فهو استعمال الأصوات بتلقائيّة للتواصل، ولعلّ أهم ما أضافه هذا التّعريف هو

عنصر التّداول الذي خلت منه التّعاريف السّابقة، ويقصد مفتاح بالتّداول معناه العام، أي علاقة المتكلّم باللّغة وعلاقته بالمخاطب وبالسّياق الضّامن لنجاعة عمليّة التّواصل ووجاهتها، على أنّ أهم ما أضافه الباحث في تعريفه للتشاكل هو إدماج عنصر التّناص، فالنص مهما كان ليس إلاّ إركاما وتكرارا لنواة معنويّة موجودة قبلا، لأنّ كل خطاب هو حوار مع خطاب آخر أو خطابات أخرى قصد دعمها «التنميّة الإيجابيّة» أو دحضها «التنميّة السلبيّة»، والتّشاكل في نظر الباحث إيحاء يكشف التّصوّر الانطولوجي والمعرفي والعاطفي للإنسان وليس انسجام الكلام فقط[8].

يقدّم التّشاكل في السّياق الذي طرحه مفتاح كآليّة وصفيّة لاستخراج بواطن النّص، لأنّه مؤسّس على ثوابت لغوية وأنتروبولوجية، تهدف إلى[9]:

– الحصول على معلومات حول الخصائص العميقة لحقل مفهومي معيّن في الاستعمال اللّغوي.

– إثبات اختلاف الثقافات في جوانب وتماثلها في جوانب أخرى.

– البحث عن البنيات المعرفية الكامنة خلف الأنساق المعجمية لمجتمع ما.

– إثبات انسجام رسالة النّص.

يتميّز مفهوم التّشاكل المحدّد آنفا بخاصيّة التّحليل بالمقوّمات الذّاتيّة والمقوّمات السّياقيّة، ما يجعله يجمع بين التّحليل المفردي والجملي والصي، ويتجاوز المعاني الظاهرة في النّص إلى إيحاءاته الكاشفة عن التّصوّر الأنطولوجي والمعرفي والعاطفي للإنسان وعن حاجته، وآليّات إشباعها[10]، بيد أنّ الممارسة –يقول مفتاح– تبيّن أنّ التّحليل بالمقومات الذّاتيّة لا يتحقّق إلاّ في قدر ضئيل من الكلمات، لذلك فإنّ المقومات السّياقيّة والتّفاعليّة هي التي يجب أن توظّف فيه لأنّ كثيرا من المقومات يضيفها القارئ من عنده بناءً على السّياق العام ومعرفته الخلفيّة[11]، وهذا ما يجعل التّحليل مرتبطا بالمعرفة الموسوعيّة التي تسمح بتشييد مقومات سياقيّة كفيلة بالتأليف بين المفردات المتنافرة ما يجعلنا نتجاوز معناها المعجمي إلى إيحاءاتها المختزنة في موسوعتنا، فنسحب منها ما يلزمنا للتحليل[12]، ويتّضح ذلك أكثر مع التّشاكلات الاستعارية.

– **التشاكل الاستعاري:** يتحقّق التّشاكل الاستعاري عندما تدخل الكلمات في علاقات قصد بناء المعنى الاستعاري، حيث ترد هذه الكلمات محمّلة –كل واحدة على حدى– بعدد من السّمات التي تخصصها، وينتج عن التركيب بينها عملية إضمار سمات وتنشيط أخرى حتى ينسجم الكلام، كما يتم الاستغناء عن الكثير من السّمات الأخرى التي يمكن أن تنشّط في سياقات مغايرة؛ فالكلمة في ذاتها متعدّدة السّمات لا تتخلّص من كثافتها إلاّ عندما تندرج في سياق تركيبي معيّن، حيث تبدأ عمليّة التّكيف التي ينتج عنها انسجام الجملة الاستعارية أو تشاكلها؛ ويتحقّق تشاكل الجملة الاستعارية بواسطة تخلّص الكلمة من سماتها المتعدّدة، وتنشيط السّياق للسمات المنسجمة مع سمات الكلمات المجاورة[13].

يتّضح مما سبق أنّ التّشاكل الاستعاري "يقوم على تكرار سمات عبر التركيب، ويؤدّي هذا التّكرار إلى انسجام الجملة الاستعاريّة وعدم التباسها، حيث يقوم التركيب بعملية إضمار سمات وتنشيط أخرى قصد تحقيق هذا الانسجام"[14]، لذلك يمكننا القول أنّ "المعنى الاستعاري ينتج عن آليّة التّشاكل السّمي"[15]، حيث تقوم الاستعارة بإعادة تنظيم السّمات، فتتخلّى الكلمات عن بعض سماتها وتكتسب أخرى بفعل دخولها في علاقات تركيبيّة معيّنة، وفيما يلي سنبيّن فاعلية الاستعارة في إعادة تنظيم السّمات من خلال تحليل بعض النّماذج التّطبيقيّة على النّحو الآتي:

أ– **تحليل استعارة:** "عار أن نشتري الوطن ونبيعه حلما في السوق السوداء"[16].

تحمل كلمة «وطن» في هذه الاستعارة سمات متعدّدة من مثل: [+معنوي]، [+هوية]، [+انتماء]، [+إنسان]، لكن عندما تدخل هذه الكلمة في التّركيب تضمر هذه السّمات وتنشّط بدلها سمات أخرى من مثل: [+مادي]، [+عملة صعبة]، [+إنسان]، [+صفقة غير مشروعة] باعتبار البيع والشّراء الذي يتمّ في السّوق السّوداء، وعلى هذا فإنّ كلمة «وطن» هنا مخصّصة لتحديد معنى «التّعامل غير المشروع» حيث تبنى الدّلالة فيها حسب السّياق الذي وردت فيه هذه الاستعارة.

يتّضح أنّ التّشاكل في هذه الاستعارة يتحقّق بطريقتين:

– ملاحظة تكرار السّمة [+عملة صعبة] الملازمة في الفعل «اشترى» و«باع»، وعرضيّة في الاسم «وطن»، عندما نؤوّل «الوطن» باعتباره بلد الانتماء.

– ملاحظة تكرار السّمة [+صفقة غير مشروعة] الملازمة «للوطن» في الفعل «اشترى» و«باع» في السّوق السّوداء، وذلك عندما ننطلق من تأويل «الوطن» باعتباره عملة صعبة يتمّ المتاجرة بها في السّوق السّوداء بصفة غير مشروعة.

ب– تحليل استعارة: "المناصب الحلوب"[17].

يتمّ في هذه الاستعارة إعادة تنظيم السّمات الدّلالية بطريقة يحافظ فيها المصدر «حلوب» على سمته الملازمة [+حيوان]، أمّا السّمة الملازمة في المناصب [+إنسان] فإنّها تضمر وتنشّط مكانها السمة [+حيوان] باعتبار الحيوان مصدر رزق «البقرة الحلوب»، انطلاقا من الرّبح المحقّق في هذه المناصب «مال، جاه، نفوذ» التي تبعد السّمة [+إنسان] وتنشّط بدلها سمة [+الحيوان]، فيكون التّمثيل السّمي لهذه الاستعارة كالآتي:

مناصب	←	حلوب
+ مصدر رزق		+ مصدر رزق
+ حيوان		+ حيوان
+ حي		+ حي
+ نكرة		+ نكرة
+ غير عاقل		+ غير عاقل

يدخل هذا النّوع من التّشاكل ضمن ما يعرف بالتّشاكلات الجزئيّة، حيث أقام البنية الدّلاليّة وحدّد مستوى من المعنى، باعتبار أنّ إضمار السّمة [+إنسان] من المناصب تأتي لما هو مجسّد في الواقع «ثراء فاحش، مصدر مالي غير منقطع»، حيث تعمل الاستعارة هنا على "حذف تفصيلات، وتجعل أخرى مكانها"[18]، فالمتلقّي لبنية «حلوب» يفهم أنّ الكاتبة أرادت أن تحيل إلى مصادر ماليّة كبيرة وغير منقطعة. «فالحلوب» صفة البقرة كثيرة الحليب وعليه فهي مصدر مال ورزق، وقد أطلقت مستغانمي هذه الصّفة على المناصب العليا للدولة باعتبارها مصدر مال وثراء.

ت– تحليل استعارة: "لأنّك امرأة نبتت في دهاليزي السّريّة"[19].

يتعيّن في هذه الاستعارة وجود السّمة [+نبتت] في الاسم «امرأة»، حيث يحافظ الاسم «نبات» على السّمة الملازمة [+نبتت] أمّا السّمة الملازمة في المرأة [+إنسان]

فإنّها تضمر وتنشّط مكانها سمة أخرى هي [+نبتت] ليصبح التّمثيل السّمي لهذه الاستعارة كالآتي:

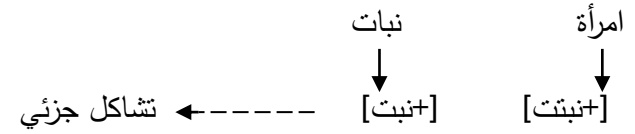

ث- تحليل استعارة: "جلس الياسمين مقابلا لي"[20].

يتعيّن في هذه الاستعارة وجود سمة المرأة الملازمة [+جلس] كسمة عرضية في الاسم «ياسمين»، حيث حافظ الاسم «امرأة» على سمته الملازمة [+إنسان]، أمّا السّمة الملازمة للياسمين [+نبات] فتضمر في هذا السّياق وتنشّط مكانها سمة أخرى [+جلس] الخاصة بالمرأة، فيكون التمثيل السمي لهذه الاستعارة كالآتي:

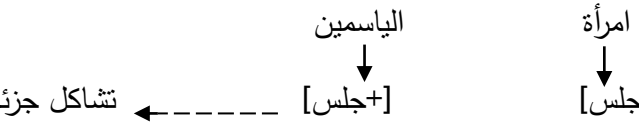

انطلاقا من النّماذج التّطبيقيّة نخلص إلى أنّ "مشكلة المعنى التي تطرحها الاستعارة تحصرها مسألة إعادة التّشكيل السّيمي"[21]، والذي يتحقّق في مستويين[22]:

- مستوى يلاحظ فيه تكرار السّمة أو «السّمات» التي تدخل طرفي الاستعارة في طبقة واحدة، ويتحقّق التّشاكل فيه بصفة جزئيّة.

- مستوى يلاحظ فيه تكرار السّمة أو «السّمات» المسوّغة للاستعارة والضامنة للتشاكل الكلّي.

إنّ الحديث عن التّشاكل الكلي لا يقتصر على التّشاكلات الجملية، بل يتعداها إلى التّشاكل النّصي الذي يحقّق القراءة المنسجمة للنصوص، وارتباط التّشاكل بانسجام الخطابات أمر نجده عند الباحثين الذين جاءوا بعد غريماس، وتحديدا الذين أضافوا إلى مفهوم التّشاكل بعدا تداوليّا مرتبطا بالسّياق الخارجي وصاحب النّص، ومن بين هؤلاء الباحثين نذكر أمبرتو إيكو الذي لم يبعد مفهوم التّشاكل عن مجال التّعاون النّصي الذي يساعد القارئ على تأويل الخطاب حيث حدد إيكو وظيفة التّشاكل في[23]:

- فك الالتباس عبر الجملي أو النّصي، وربّما يخص أيضا بعض الجمل والمركبات الاسميّة.

– تغطية ظواهر سيميائيّة متنوّعة قابلة للتحديد باعتبارها انسجاما لمجرى القراءة في مختلف المستويات النصية.

– يعمل على استقرار مجرى المعنى الذي يبرزه نص ما حين نخضعه لقواعد الانسجام التّأويلي.

يتّضح ممّا سبق أنّ "وصف التّشاكل مشروط بالقدرة التّأويلية التي تحكمها وتوجّهها موسوعة القارئ"[24]، وهو ما يؤكّد فرضية أنّ التّشاكل هو القراءة المنسجمة للنصوص، وفيما يلي سنحاول تحليل مجموعة من الاستعارات بهدف عرض بعض التّشاكلات الدلالية التي تمثّل في معظمها تشاكلا كليا لنص ذاكرة الجسد.

1– تشاكل (الذاكرة/الألم):

نلاحظ أنّ الخطاب الرّوائي في ذاكرة الجسد يحقّق تشاكلات دلالية لمفهوم الذّاكرة ومفهوم الألم، يتّضح ذلك من خلال الاستعارات الخاصة بالذّاكرة والتي نحلّل بعضها فيما يلي:

أ– تحليل استعارة: "نحن لا نشفى من ذاكرتنا"[25].

الذّاكرة	مرض
[+إنسان]	[+إنسان]
[+معنوي]	[+مادي]
[+نفسي]	[+ألم]
[+ماضي]	[+معاناة]
	[+عضوي]
	[+نفسي]

يشير الجدول إلى أنّ كلمة «ذاكرة» تتميّز بسمات محدّدة تختلف عن السّمات الخاصة بكلمة مرض، لكن الاستعارة هنا تقوم بإعادة تنظيم السّمات حيث تصبح الذّاكرة حاملة لسمة الألم الخاصة بالمرض كالآتي:

الذّاكرة

↓

/+إنسان/، /+معنوي/، /+نفسي/،/+ماضي /، /+ألم/.

ب- تحليل استعارة: "الذّاكرة المعطوبة"[26].

الذّاكرة	إنسان معطوب
[+إنسان]	[+إنسان]
[+معنوي]	[+حرب]
[+نفسي]	[+عطب]
[+ماضي]	[+ألم]

تمّ في هذه الاستعارة تشبيه الذّاكرة بإنسان معطوب، وهنا تكتسب الذّاكرة سمة الألم الذي يسبّبه العطب كالآتي:

الذّاكرة

↓

/+إنسان/، /+معنوي/، /+نفسي/، /+ماضي /، /ألم/.

تكتسب ذاكرة خالد سمة الألم عند تذكّره لبتر ذراعه أثناء الثّورة والمعاناة التي كان يعيشها إثر ذلك، حيث كان يخجل من ذراع بدلته الفارغ الذي كان يخفيه في كل مرة في جيب سترته، كان يخجل أن ترافقه ذراعه المبتورة في الميترو وفي المطعم وفي المقهى، وفي الطائرة، وفي حفل يدعى إليه، ممّا يتسبّب له في ذكريات أليمة تذكّره دائماً بأنّه من معطوبي الحرب الذين استغنى عنهم الوطن بعد الاستقلال.

ت- تحليل استعارة: "من يوقف نزيف الذّاكرة الآن؟"[27].

الذَاكرة	جرح
[+إنسان]	[+ مادي]
[+معنوي]	[+عضوي]
[+نفسي]	[+إصابة]
[+ماضي]	[+نزيف]
	[+دم]
	[+ألم]

على الرّغم من أنّ السّمات الخاصة بالذّاكرة تختلف عن السّمات الخاصة بالجرح، فإنّ الاستعارة هنا أعادت تنظيم السّمات بصفة سمحت للذاكرة أن تكتسب سمة الألم الخاصة بالجرح الذي ينزف على الشّكل الآتي:

الذّاكرة

↓

/+إنسان/، /+معنوي/، /+نفسي/، /+ماضي/، /+ألم/.

بعد تحليل الاستعارات الثلاث يمكننا القول – مستنتجين– أنّ دلالة الألم تتشاكل مع الذاكرة، ويمكن أن نمثّل ذلك على النّحو الآتي:

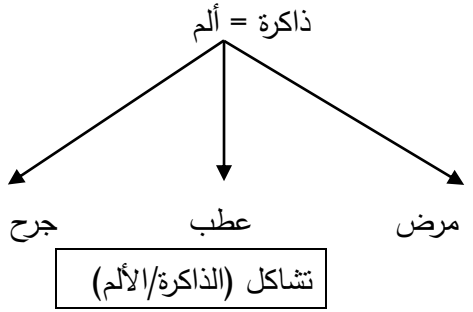

يتحقّق التّشاكل الكلي لمفهوم «الذّاكرة» ومفهوم «الألم» في الخطاب الرّوائي لـ «ذاكرة الجسد» من خلال تكرار سمة «الألم» المصاحبة للذاكرة على المستوى الكلي للنص، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ألم الذّاكرة تسبّب فيه الحرمان الذي عاشه بطل الرواية جراء فقدانه لـ: أمه وذراعه اليسرى ووطنه وحبه، وعلاوة على تشاكل مفهوم الذاكرة ومفهوم الألم نلاحظ تشاكلات دلالية لمفهوم الفقدان مع بعض المفاهيم الأخرى من مثل: الطفولة، الوطن، الحب، على المستوى الكلّي للنص، وذلك على النّحو كالآتي:

2– تشاكل (الطفولة/فقدان): تتشاكل دلالة الفقدان مع مفهوم الطفولة في الاستعارة الآتية:

–"طفولتي المبتورة"[28].

في هذه الاستعارة يتمّ تصوير «الطفولة» وهي شيء معنوي على أنّها شيء مادي مبتور أو مقطوع، حيث يفرض سياق الرّواية أنّ الشيء المبتور هو ذراع خالد، فهناك تشبيه بين الطفولة وذراع خالد المبتورة كالآتي:

الطفولة	ذراع
[+معنوي]	[+إنسان]
[+مجرد]	[+جسم]
[+إنسان]	[+بتر]

تعيد الاستعارة في هذا المثال تنظيم السّمات الخاصة بـ«الطفولة» والسّمات الخاصة بـ «الذّراع المبتورة»، فتكتسب كلمة «طفولة» سمة عرضية [+بتر]، اللازمة في الذّراع على النّحو الآتي:

طفولة

↓

/+معنوي/، /+مجرد/، /+إنسان/، /+بتر/.

تصوّر لنا هذه الاستعارة الطفولة الناقصة التي عاشها خالد بعد فقدانه لأمّه، حيث تشير طفولته المبتورة إلى دلالة الفقدان.

3- تشاكل (الذراع/فقدان):

تتشاكل دلالة الفقدان أيضا في استعارة الذّراع الآتية:

- "أنت تخجل بذراع بدلتك الفارغ"[29].

البدلة	إنسان
[+مادي]	[+مادي]
[+طول]	[+عاقل]
[+عرض]	[+طول]
[+لون]	[+عرض]
[+إنسان]	[+ذراع فارغ]

تعيد هذه الاستعارة تنظيم السّمات بطريقة تكتسب فيها البدلة السّمة اللازمة في الإنسان [+ذراع] التي تصبح سمة عرضية في البدلة كالآتي:

البدلة

↓

/+مادي/، /+طول/، /+عرض/، /+لون/، /+ذراع فارغ/.

تندرج هذه الاستعارة فيما يعرف بالاستعارة الاضطراريّة التي أنشأها الإنسان لسد حاجاته اللغوية وتصوّر البدلة على أنّها إنسان لديه ذراع، والبدلة هي قطعة قماش يرتديها الإنسان، تتميّز باحتوائها على ذراعين ورجلين.

تتميّز بدلة خالد بن طوبال –حسب السّياق الذي وردت فيه الاستعارة– بفراغ ذراعها اليسرى، ما يدلّ على غياب هذه الذّراع، ومن هنا يتّضح تشاكل دلالة الفقدان مع مفهوم الذّراع في هذه الاستعارة.

4– تشاكل (الوطن/الفقدان):

يتجسّد تشاكل دلالة الفقدان مع مفهوم الوطن في الاستعارة الآتية:

– "هناك يتم الأوطان أيّضا"[30].

الوطن	والدان
[+معنوي] [+مجرد] [+انتماء] [+هوية]	[+مادي] [+إنسان] [+عاقل] [+موت] [+يتم]

تصوّر هذه الاستعارة خالد الفاقد لوطنه على أنّه شخص «يتيم»، ويصبح بن طوبال يتيم الوطن بعد أن اضطرّ إلى الخروج منه والعيش في الغربة، حيث تشير دلالة الإضافة «أيضا» إلى أنّ خالد قد جرّب من قبل مرارة اليتم بعد وفاة أمّه ثم أبيه، وجرّبها للمرة الثّانيّة بعد فقدانه للوطن.

تعمل هذه الاستعارة على إعادة تنظيم السّمات فيصبح الوطن حاملا سمة الفقدان اللازمة في الإنسان اليتيم كالآتي:

الوطن

↓

/+معنوي/، /+مجرد/، /+انتماء/، /+هوية/، /+يتم/.

5- تشاكل (الحب/فقدان):

يستمرّ تشاكل دلالة الفقدان أيضا مع مفهوم الحب، وسنحاول استجلاء ذلك بتحليل الاستعارتين الآتيتين:

أ- تحليل الاستعارة: "أنت تجمعين حقائب الحب"[31].

الحب	سفر
[+معنوي]	[+معنوي]
[+مجرد]	[+زمن]
[+إنسان]	[+مكان]
[+عاقل]	[انتقال]
	[+غياب]

تقوم هذه الاستعارة بإعادة تنظيم سمات كلمة «حب» وكلمة «سفر»، حيث يكتسب الحب إحدى سمات السّفر الملازمة وهي [+غياب] الذي يتضمّن دلالة الفقدان، فيصبح الغياب سمة عرضية في الحب كالآتي:

الحب

↓

/+معنوي/، /+مجرد/، /+إنسان/، /+عاقل/، /+حقائب/، /+غياب/.

تصوّر هذه الاستعارة بطلة الرواية «حياة عبد المولى» وهي في حالة تأهّب لترك خالد، ويتضح ذلك من خلال صيغة المخاطبة «أنت» وفعل المضارع «تجمعين»، إذ يظهر الحب كأنّه حالة سفر تقوم حياة بجمع الحقائب استعدادا له.

ب- تحليل استعارة: "غادرتي قلبي إذن"[32].

يتعلّق الفعل الماضي «غادرتي» بالمكان (غادر ⟵ ترك المكان) وعليه يكون تمثيل هذه الاستعارة كالآتي:

القلب	المكان
[+إنسان]	[+مساحة]
[+حيوان]	[+طول]
[+مادي]	[+عرض]
	[+مغادرة]

يكتسب «القلب» في هذه الاستعارة كذلك إحدى السّمات اللازمة في «المكان» وهي [+مغادرة] التي تتضمّن دلالة الفقدان، وبعدما تقوم هذه الاستعارة بإعادة تنظيم السّمات كالآتي:

القلب

↓

/+إنسان/، /+حيوان/، /+مادي/، /+مغادرة/.

تصوّر هذه الاستعارة قلب خالد كأنّه «مكان» كانت توجد فيه حياة ثم غادرته، وبفعل المغادرة تتكرّر دلالة الفقدان للمرّة الرّابعة مع استعارة الحب.

نستخلص من تحليلنا لهذه الاستعارات أنّ دلالة الألم تتشاكل مع مفهوم الذّاكرة، وما يتسبّب في ألم هذه الأخيرة هو دلالة الفقدان التي تتشاكل مع مفهوم «الطفولة، الذراع، الوطن، الحب»، ويمكن أن نمثّل ذلك في الترسيمة الآتية:

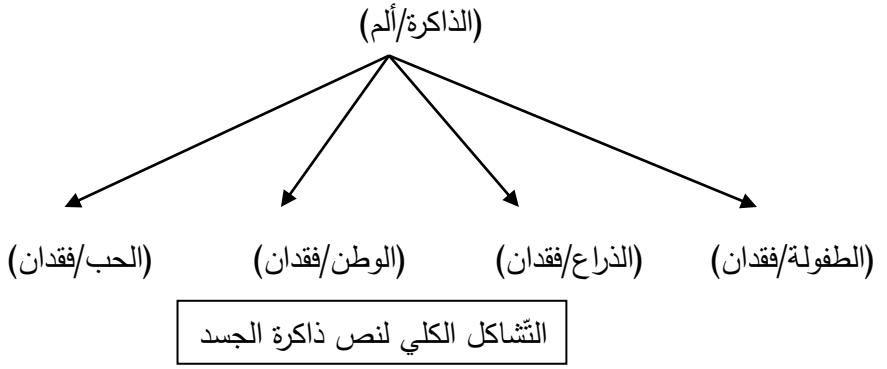

التّشاكل الكلي لنص ذاكرة الجسد

2- نماذج العلم المعرفي: يؤمن التّحليل الموسوعي بمفاهيم العلم المعرفي بأنّ المستمع/القارئ لا يواجه خطابا وهو خالي الذّهن، إنّما يستعين بتجاربه السّابقة. فالمعروف أنّ معالجته للنص المعاين تعتمد على ما تراكم لديه من معارف سابقة تجمّعت لديه، معارف تمكّنه من الاحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص «والتجارب» السّابق له قراءتها ومعالجتها، لكن المشكل المطروح هو أنّ النّص المواجه قد لا يحتاج إلى كل المعلومات التي يمتلكها القارئ حول هذا النّص، لذلك فهو يختار من المخزون الهائل من المعلومات التي يكتسبها ما يلائم الظّاهرة موضوع النّص، وهذا معناه أنّ المعرفة منظّمة بطريقة مضبوطة بعيدة عن العشوائيّة، ومن أجل إبراز الطابع المعرفي المنظّم حاول باحثون ينتمون إلى تخصّصات مختلفة تمثيل المعرفة المخزونة في الذّاكرة وبحثها بطريقة علميّة تمكّن من اكتشاف العمليّات الذّهنيّة التي يشغّلها القارئ أثناء مواجهة نص ما[33].

اعتمد هؤلاء الباحثون على مفاهيم تنتمي إلى حقول الذّكاء الاصطناعي** وعلم النّفس المعرفي وهي: الإطار، المدوّنة، السّيناريو، الخطاطة.

2-1- الإطار: من بين النتائج الأساسيّة التي توصّل إليها علم النّفس المعرفي أنّ "النّاس يفكرون من خلال الأطر والاستعارات، حيث توجد الأطر في نقطة الاشتباك العصبي (synapses) لأدمغتنا وهي حاضرة فيزيائيّا على شكل دورة عصبيّة"[34] ينظّم من خلالها الذّهن البشري المعرفة ضمن مواضيع مثالية ملائمة لأوضاع خاصة، بمعنى أنّ الذّاكرة الإنسانيّة تحتوي على أنواع من المعارف المنظّمة في شكل بنيات، وحينما يواجه الإنسان سلوكا أو حدثا أو يريد أن يقوم بشيء ما، فإنّه يستمد من مخزون ذاكرته أحد أجزاء البنية لتأويل ما وقع أو لإنجاز ما يريد[35]، ويتم ذلك عن طريق العقدة والروابط والشغّالين التي يمتلكها الإطار.

أ- العقدة: وهي المستوى الأعلى أو العقدة العليا التي تتولّد عنها عقد صغرى لها فضاءات فارغة، ويمكن أن تملأ هذه الفضاءات ببعض البنيات أو التعابير التي تدعى «المالئة» التي قد يتشعّب بعضها إلى عقد جديدة، ويتوقّف بعضها الأخر[36]، وسنحاول تبيين ذلك من خلال تحليل استعارة:

- "نحن لا نشفى من ذاكرتنا"[37].

تتمثّل العقدة في هذه الاستعارة في الذّاكرة المريضة التي تتفرّع إلى عقد فرعيّة وهي: الألم، الحرمان، الخوف، المعاناة، الحزن، على النّحو الآتي:

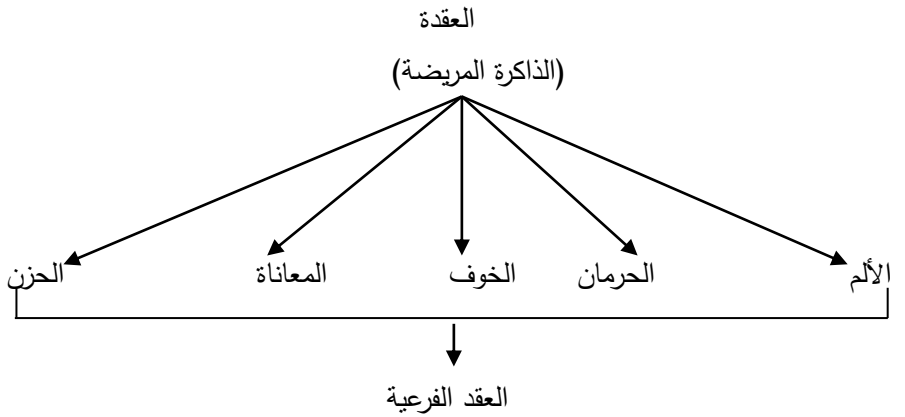

ب- الروابط: تشير الروابط إلى العلاقة الوثيقة بين الإطار الأم «العقدة العليا» والأطر الفرعيّة «العقد الفرعيّة»[38]، وبالعودة إلى الاستعارة السّابقة نجد الذّاكرة المريضة ترتبط بالألم والحزن والحرمان في جوانب متعددة وهي:

- ذاكرة الطفولة ← يتم، حرمان، خوف.
- ذاكرة الثّورة ← عنف، موت، دمار.
- ذاكرة المرض ← بتر الذراع، الإحساس بالنقص.
- ذاكرة الوطن ← الغربة خارج الوطن، الإحساس بالغربة داخل الوطن.
- ذاكرة الحب ← فقدان الحبيبة، العيش في الوحدة.

لذلك يمكن القول إنّ الإطار الأم هو الذّاكرة، والأطر الفرعية هي: ذاكرة الطفولة، ذاكرة الثّورة، ذاكرة المرض، ذاكرة الوطن، ذاكرة الحب، ويمكن أن نمثّل ارتباط الإطار الأم بالأطر الفرعية حسب الشّكل الآتي:

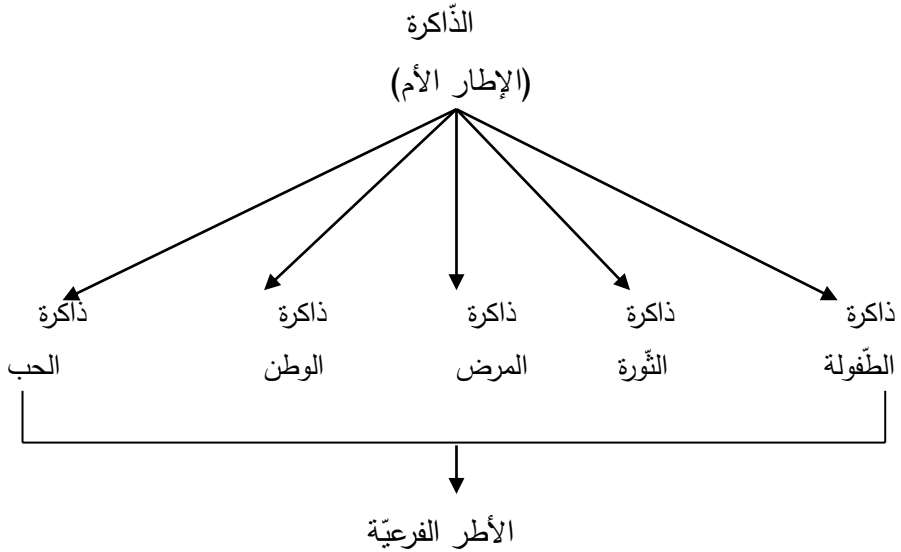

ت- الشّغالون: يمثل الشّغالون الآليّة التي تقوم إلى جانب الرّوابط بدور بيّن في الرّبط بين الأطر «العقدة» وتنشيطها، إذ يقوم الشّغالون بالرّبط والتّنشيط عن طريق الاستدلال كالأتي[39]:

أ- زمن الاشتغال:

أ-1- الصّنف:

مكان الاشتغال: مكان1 ← المرسم «منزل خالد في فرنسا».

مكان2 ← غرفة «منزل خالد في قسنطينة».

أ-2- القيمة المفقودة : تجاوز الذّكريات الأليمة «النّسيان».

ب- شكل الأداء:

- الأصناف: «الرّسم، الكتابة».

2-2- المدوّنة: إذا كان الإطار يصف الحالة العامة للنموذج الذّهني دون تفاصيل ولا تتابع أحداث، فإنّ المدونّة وضعت أساسا للتعامل مع متواليات الأحداث، ومن ثم فهي مبرمجة بدقّة، إذ أنّها تتضمّن متوالية معياريّة من الأحداث تصف وضعية ما[40]، وإذا كان بعض الباحثين يستعملون الإطار والمدوّنة كمترادفين فالبعض

الآخر يميّز بينهما بتتابع الأحداث، حيث توفّر المدوّنة عن طريق التتابع فهما دون التّصريح المباشر بموضوع الخطاب، وسنوضّح ذلك من خلال تحليل استعارة:

– "جلس الوطن"[41].

صرّح خالد بهذه العبارة أثناء جلوس حياة –التي يشبّهها في هذه الاستعارة بالوطن– أمامه في طاولة المقهى، ومن هنا نقترح مدوّنة الجلوس في المقهى، مع الأخذ بعين الاعتبار السّياق الذي وردت فيه هذه الاستعارة كالآتي:

– المشاركون: خالد، حياة، النّادل، الزّبائن.

– العناصر: المقهى، طاولة الجلوس، الكرسي، كأس الماء، زجاجة كوكا، فنجان قهوة، نقود.

– الأدوار: خالد، حياة، النّادل.

– وجهة النّظر: الأشخاص الذين يدخلون المقهى.

– وقت الحدوث: الاثنين، خارج أوقات الدّراسة، نيسان «أفريل»، 1981.

– مكان الحدوث: موقع المقهى «أحد شوارع باريس».

– شكل الأداء: الارتباك، الخجل.

– نوع الطّلب: كأس ماء، زجاجة كوكا، فنجان قهوة.

– توالي الأحداث:

أولا: دخول خالد.

ثم: دخول حياة.

ثم: مدوّنة إلقاء التّحية.

ثم: مدوّنة الاعتذار عن التأخّر.

ثم: مدوّنة الجلوس المرتبك.

ثم: مدوّنة طلب كأس ماء بخجل.

ثم: الانتظار.

ثم: مدوّنة شرب كأس ماء.

ثم: مدوّنة طلب زجاجة كوكا وفنجان قهوة.

ثم: مدوّنة شرب زجاجة كوكا وفنجان قهوة.

ثم: مدوّنة الحديث.

ثم: مدوّنة أداء الثّمن.

ثم: مدوّنة المغادرة.

2-3- السّيناريو: لا يبتعد السّيناريو عن الإطار والمدوّنة، سواء في ماهيته أو في دوره في تسهيل عملية الفهم، وبشكل عام لا تختلف نظرية السّيناريو عن النّظريّات السّابقة، مادامت الوضعيّات الموصوفة جاهزة في السّيناريوهات، وهي تتضمّن أيضا فراغات تتعلّق ببعض العناصر المشكّلة للوضعيّة، والتي يسهل على القارئ ملؤها بمجرد تنشيط سيناريو مرتبط بهذه الوضعيّة أو تلك[42] مع الأخذ بعين الاعتبار فعّالية المتلقّي في تشغيل السّيناريو، وسنبيّن فيما يلي كيفية اشتغال السّيناريو من خلال تحليل العبارة الآتية:

- "لعبة السلطة"[43].

لكي يسهل على المتلقّي فهم بنية هذه العبارة يقوم بتشغيل السّيناريو الخاص باللّعبة كالآتي:

< اللاعب - 1 >
< اللاعب - 2 > } السلطة ممارسة جماعيّة.
< اللاعب - 3 >

< مكان اللعب > } أين تمارس السلطة (مكتب، قصر الرئاسة، قصر
< زمن اللعب > } الحكومة، مقر الحزب).

< منصب >
< سياسة > } وسائل ممارسة السّلطة
< قوانين >

< ربح > } نتائج لعبة السّلطة.
< خسارة >

2-4- الخطاطة: تمثّل الخطاطات بنيات معرفيّة تضمّ توجيهات تهيئ المجرّب لتأويل تجربة ما بطريقة ثابتة، وكمثال على ذلك الأحكام العنصريّة المسبقة

التي يصدرها جنس بشري معيّن على جنس آخر انطلاقا من خطاطة موجودة سلفا، والمثال الأقرب الذي يقترحه الباحث محمد الخطابي هو صورة العربي التي تشكّلت لدى الأمريكيين، ومن ضمن مكوناتها أنّ العربي إنسان جاهل، همجي، كسول، إرهابي، لا منطق يحكم أفعاله، متهتّك[44].

وحسب براون ويول فإنه يمكن النّظر إلى الخطاطات كمعرفة خلفيّة منظّمة تقودنا إلى توقّع «أو التّنبؤ بـ» مظاهر في تأويلنا للخطاب بدل النّظر إليها كقيود حتمية على كيفية وجوب تأويل الخطاب، كما أنّ الخلفيّات الثّقافيّة المختلفة يمكن أن تنتج خطاطات مختلفة من أجل وصف الأحداث المشاهدة في الاستعارة، وعلى هذا تعمل الخطاطات على تزويد محلل الخطاب بطريقة لتفسير الخطاب وتأويله، وهي بذلك وسيلة لتمثيل المعرفة الخلفيّة التي نستعملها كلنا، ونفترض أنّ الآخرين يستطيعون استعمالها أيضا، حيث ننتج ونؤوّل الاستعارة[45]، ولتمثيل كيفية اشتغال الخطاطة سنحلّل الاستعارتين الآتيتين–استنادا على ما قدّمه سعيد الحنصالي– بهدف إيجاد الخطاطة المشتركة بينها:

المجال	الاستعارة	الحالة الأصليّة	تصميم الحل	الحصيلة
الكتابة	"تمطر الذّاكرة"[46].	– الهدف: فقدان الوطن، الحب، الذراع. – الموارد: كلمات، ورق، ذكريات، قلم.	كتابة مذكرات.	التعويض عن فقدان الوطن، الحب، الذّراع.
الرّسم	"شهيّة جنونيّة للرسم"[47].	– الهدف: فقدان قسنطينة. –الموارد: الفرشاة، الألوان، اللّوحة	رسم جسور قسنطينة	التعويض عن فقدان الجسور، فقدان قسنطينة

تقارب الخطاطة	"نحن لا نشفى من ذاكرتنا لهذا نحن نكتب، ولهذا نحن نرسم"[48]	- الهدف: الشفاء من الذّاكرة المريضة جراء الفقدان. -الموارد: الكتابة والرّسم.	استعمال الطرق المؤدّية إلى تعويض الفقدان والشفاء من الذّاكرة المريضة: كتابة مذكرات، رسم لوحات.	لهدف المشترك: الكتابة والرّسم أداتان لتعويض الفقدان.

تقارب الخطاطة بين «الكتابة» و«الرّسم»

نخلص إلى أنّ أهمية التّحليل في ضوء نماذج العلم المعرفي، يعود إلى كونه يتم ضمن بنية كليّة من خلال النّظر في مكونات الإنسان ووضعه، وعلاقته بالطبيعة وبغيره من النّاس، وذلك خلافا للتحليل بالمقوّمات الذي يركّز على تفكيك المفهوم في حد ذاته. إلا أنّ الأمر يبقى نسبيا، إذ أن تحليل البنية إلى عناصر يتمّ عبر الآليّات نفسها تقريبا، فالمحلل للمفهوم المفردة يترصّد مختلف مقوّماتها، والمفكّك للبنية يذكر عناصرها. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّ السّياق حين يتدخّل في إطار بنية خطابيّة معقدة، فإنّ حضور هذه المفاهيم تكون له قيمته الإجرائيّة إضافة إلى مفاهيم أخرى لها قوّتها ووجاهتها، مثل مفهوم التّشاكل الذي يندرج في إطار التّفسير الدّلالي، حيث يساهم هذا المفهوم في القبض على الدّلالة.

الهوامش:

*- هي التي تتعامل مع النّص كبنية مغلقة.

1- يُنظر: فضيلة قوتال، التّشاكل والفعل الاستعاري، مجلة سيميائيّات، ع 2، الجزائر 2006، ص.90.

2- يُنظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشّعري (إستراتيجية التّناص)، المركز الثّقافي العربي، ط2، الرباط 1986، ص.20.

3- م. ن، ص.19.

4- يُنظر: م. ن، ص.19.

5- يُنظر: م. ن، ص. ص.20-21.

6- يُنظر، ص.ص.21-22.

7- م. ن، ص.25.

8- يُنظر: م. ن، ص. ص.25 -26.

9- يُنظر: محمد مفتاح، التّشابه والاختلاف، المركز الثّقافي العربي، ط1، الرباط 1996، ص. ص.132-133.

10- يُنظر: محمد مفتاح، التّلقي والتّأويل، المركز الثّقافي العربي، ط1، المغرب 1994، ص.159.

11- يُنظر: م. ن، ص.162.

12- يُنظر: محمد مفتاح، التّشابه والاختلاف، ص. ص.133- 134.

13- يُنظر: سليم عبد الإله، بنيات المشابهة في اللّغة العربيّة (مقاربة معرفيّة)، دار توبقال للنشر، ط1، الرّباط2001، ص.90

14- م ن، ص.91.

15- فضيلة قوتال، التّشاكل والفعل الاستعاري، ص.89.

16- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط23، بيروت2008، ص.283.

17- م. ن، ص.81.

18- رشيد الإدريسي، سيمياء التّأويل (الحريري بين العبارة والإشارة)، المدارس للنشر والتّوزيع، ط1، الدار البيضاء2000، ص.61.

19- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص.41.

20- م. ن، ص.75.

21- فضيلة قوتال، التّشاكل والفعل الاستعاري، ص.89.

22- يُنظر: سليم عبد الإله، بنيات المشابهة في اللّغة العربية (مقاربة معرفيّة)، ص.96.

23- يُنظر: سعيد الحنصالي، الاستعارات والشّعر العربي الحديث، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب2005، ص.143.

24- يُنظر: م. ن، ص ن.

25- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص.7.

26- م. ن، ص.73.

27- م. ن، ص.284.

28- م. ن، ص.30.

29- م. ن، ص.72.

30- م. ن، ص.289.

31- م. ، ص.16.

32- م. ن، ص.ن.

33- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النّص (مدخل إلى انسجام النّص)، المركز الثّقافي العربي، ط2، الرباط 2006، ص. ص.61-62.

**- يُستعمل الذكاء الاصطناعي بهدف تفسير الآليّة التي يشتغل بها الذّهن البشري في الفهم عن طريق الآلة، أمّا علم النّفس المعرفي فيستعمل لتبيين كيفية امتلاك الذّهن البشري المعرفة ، يُنظر: م. ن، ص. ن.

34- جورج لايكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة: عبد الحميد جحفة، دار توبقال للنشر، ط1، الرّباط1996، ص.72.

35- يُنظر: محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال للنشر، الرّباط1990، ص.68.

36- يُنظر: م. ن، ص.68.

37- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص.7.

38- يُنظر: محمد مفتاح، مجهول البيان، ص.69.

39- يُنظر: م. ن، ص.69.

40- يُنظر: م. ن، ص.69.

41- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص.85.

42- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النّص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، ص.66.

43- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص.57.

44- يُنظر: محمد الخطابي، لسانيات النّص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، ص.67.

45- يُنظر: سعيد الحنصالي، الاستعارات والشّعر العربي الحديث، ص.136.

46- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص.11.

47- م. ن، ص.190.

48- م. ن، ص.7.